تفتح ملف.. "العاصمة الأسوأ"

التقرير الذي أصدرته منظمة(ميرسر) لنوعية المستوى المعيشي لعام ٢٠١١ والذي عد بغداد الأسوأ من بين ٢٢٠ مدينة في العالم،أثار حنق الشعب العراقي في ظل الموازنات الانفجارية التي رصدت لها،والتي لم يلحظ سكان العاصمة منها أي تطور لمدينتهم التي جاءت ثالثة بالسوء بعد مدينتي(بانغوي)بجمهورية إفريقيا الوسطى و(نجامينا)عاصمة تشاد.المسؤولون عن بناء و إعمار العاصمة التزموا الصمت والبعض شكك في دقة معلومات التقرير.

((الحلقة الأولى))

بغداد إلى أين؟

قاذورات مداخل العاصمة بديلاً عن الأشجار والزهور

بوابة المدائن تستقبل المسافرين بذلّ المتسوّلات

مجلس المحافظة يصرّح بإنجاز ٧٠% منها والواقع يفنّد

بغداد / يوسف المحمداوي
عدسة / أدهم يوسف

بغداد أسوأ مدن العالم قد يذهل غير العراقيين أما من احترقوا بنار أوجاعها فلا يذهلون فمن المسؤول عن ذلك؟سؤال تضعه المدى على طاولة المسؤولين عن قيادة إعمار بغداد،وسنعززه بالتحقيقات الميدانية وبالصور عن مشاريع الخراب التي يديم افتتاحها أمراء الفساد في عاصمتنا الحبيبة،عل بقايا ضمائر نقية ونفوس وطنية تلتفت وتنقذ ما تبقى من أطلال عاصمة العلم وقبلة الحضارة والشعر والفن.

مداخل المدن تعكس رقيَّها

لاشك في أن الجميع يدرك أن جميع دول العالم غنية كانت أم فقيرة تحرص وتولي عناية خاصة لمداخل عواصمها بل وحتى مدنها الأخرى،إيمانا منها بأن المداخل تعكس وجه المدينة والمترجمة لمدى تطورها ورقيها على جميع المستويات بل هي الناقل الحقيقي لتفاصيل الحياة فيها،والزائر لأية عاصمة من عواصم هذا العالم الكبير ستبقى عالقة في ذهنه تلك الصور سواء كانت مبهرة أم محبطة.

بغداد المنكوبة كانت يوما ما تذهل وتسحر العالم بمداخلها وأبوابها لما تتسم به من التصميم العمراني الفني الساحر ولما تحتويه من وسائل السياحة والراحة لزائريها،وأسس لهذا النهج الحضاري مع تأسيس الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور لها،ولكن ما تعرضت له من حروب ونكبات وفيضانات وسياسات لحكومات استبدادية لم يبق من تلك الشواخص الحضارية سوى باب الوسطاني في منطقة الشيخ عمر وهو في طريقه للحاق بقافلة الزوال،لان بعض المسؤولين آثروا إهماله على انتشاله،وتركوه عاريا من ابسط أولويات الاهتمام والعناية،فتراه محاطا بالمياه الآسنة والحشائش والأدغال والقاذورات،حتى الرسومات والنقوش التي كانت عليه بدأت تغيب ملامحها ويندثر وضوحها،فتجده واقفا دامعا يبكي مجده وتاريخه الطويل،المهم لا يهم مادام الإصغاء أبكما.

نسبة الانجاز ٧٠% ولكن!؟

صرح المكتب الإعلامي لمحافظة بغداد في السابع من حزيران العام الماضي ،أن دوائر المجلس الهندسية وضمن خطة مشاريع محافظة بغداد لتطوير مداخل العاصمة قطعت أشواطا متقدمة لانجاز بوابات بغداد ومنها البوابة الموجودة على طريق بغداد . الكوت الكائنة في قضاء المدائن وبلغت نسبة الانجاز فيها ٧٠٪، وللسائل عن مفردات المشروع وملحقاته سيجد على موقع مجلس محافظة بغداد الالكتروني الجواب وكما يلي:لكل بوابة هناك بناية المطعم الذي يعد الطعام للمسافرين،ويضم أيضا بناية الجامع،فضلا عن بناية المستوصف الصحي الذي يقدم الخدمات الصحية اللازمة،ومركزا للشرطة وآخر للدائرة الأمنية للتنسيق الأمني،ومركزا للمرور الذي يقدم الخدمة لرجال المرور أثناء أداء واجباتهم،وأبراج للحراسة والمراقبة المرورية والحمامات الصحية المتكاملة،وكلفة البوابة كما جاء في التصريح مابين ٦__٨ مليارات دينار عراقي.

أضغاث أحلام

تقول المحافظة نسبة الانجاز في عام ٢٠١٠ هي ٧٠٪ علما أن الشروع بالعمل الفعلي كما مثبت على لوحة تالفة عند البوابة بدأت في ٢٠٠٧/٨/١٤،مما يعني انه بعد مرور أربعة سنوات لم ينجز مثل هذا المشروع الصغير، فما هي الفترة الزمنية المطلوبة لإنجاز مشاريع بغداد العملاقة إن وجدت؟،لا نعتقد نحن أو أولادنا أننا سنرى مدينتنا ولو بالصورة التي كانت عليها في سبعينيات القرن الماضي،ولكننا نسرف بالتفاؤل وان كان مجرد أضغاث أحلام مادام بعض القائمين على تلك المشاريع بهذا المستوى من الخبرة والمهنية في مجال الفساد!.

وصلنا أنا وزميلاي ادهم وعلي إلى البوابة التي تقع على بعد ٤٠كم جنوبي بغداد وبالتحديد في ناحية الوحدة التابعة لقضاء المدائن،وصلنا ظهرا والجو بأسوء ما يمكن كحال بغداد أو كحالنا بعد أن شاهدنا ما شاهدناه من صور مأساوية على طريق قناة الجيش، لأننا اتخذناها مسلكا لوصولنا إلى غايتنا، وما شاهدناه على ذلك الطريق مفجع حقا.

الطريق الذي كان من أجمل طرق بغداد حيث كانت تزينه مشاتل الورود والزهور والمطاعم الترفيهية تراه اليوم وقد استعمرت أرضه أكشاك متنقلة لبائعي الخضراوات والفواكه، ومكبات للقاذورات وتلال من الأنقاض وقطعان من الماشية، مصائب ترسم لنا صورة خرائب وليس محلات بغداد الجميلة، فالقطعة التي كتب عليها (دائرة أمانة بغداد بلدية الغدير) تجد تحتها مباشرة ما يقزز النفس من أوساخ وأنقاض وهي مباشرة أمام متنزه عمارات زيونة القريبة من سوق الثلاثاء المركزي.

أليس من حقنا القول أن بعض المسؤولين أعمت بصيرتهم الأموال ولم يتمكنوا من رؤية الخراب، الم تحفزهم سفراتهم الحكومية لدول العالم وهم يرون رقي وعمران عواصمها ليلتفتوا إلى مدينة السلام والعلم.

منذ العام ٢٠٠٧ تنتظر الإنجاز

سعر البوابة ٨ مليارت دينار

وصلنا إلى بوابة بغداد التي رصد لها بين ٦-٨ مليارات والعلم عند المحافظة، لا أعتقد أن البكاء وذرف الدموع يكفيان ويوازيان هول الفاجعة التي وجدتها هناك.. هناك البوابة التي تقول المحافظة أن نسبة الانجاز فيها ٧٠ ٪ لم نجد فيها اثرا لمطعم أو طعام ،ولا مركز مرور أو شرطي مرور ولا إشارة تشير إلى ضوء، ولا مركزا للصحة يعج بالمرضى والأطباء ولا الحمامات التي تتحدث عنها المحافظة، ما وجدناه مدخل أكلت إسفلت شارعه الحفر، تعلوه بوابة يخرج من طابوقها الحديد، عارية من كل شيء إلا الإهمال، محاطة بحزمة من القاذورات، وبقايا بناء متروك، أنابيب مجار في الجزرة الوسطية ،ومثلها على الأرصفة الترابية يلونها الصدأ ودهون محركات، فضلات طعام، شيش بناء يملأ المكان ،ويستقبلك تحت البوابة جمع من المتسولات عجائز، شابات، أطفال، وهن يرتدين ثياب السواد الذي أصبح لونا دائما لحزن بغداد، وتشاهدهن كيف يتعلقن بعجلات المسافرين القادمين لعاصمتهم، فكانت البوابة جرعة مواساة لأبناء المحافظات وهم يرون بغداد على هذه الحال فيترحمون على واقع مدنهم إذا ما قارنوها بالعاصمة.

حلم الملوك والأمراء

تحت البوابة تستقبلك سيطرة تفتيش عسكرية يتصدرها مشهد المتسولات وكأنهن جزء من تلك السيطرة، مدخل الشارع فيها يحيلك إلى الشوارع المؤدية إلى مناطق نائية ترزخ تحت عالم صومالي الملامح، بل تشعر كأنك متوجه صوب مدينة أشباح وليس إلى بغداد التي كانت ولعهد قريب قبلة السياح وحلم الملوك والأمراء والسلاطين أن تبلغ عواصمهم جمالها ورقيها ،ماذا نفعل؟ غير أن نقول ما قاله الشاعر مصطفى جمال الدين عنها:

بغداد ما اشتبكت عليك الأعصر
إلا ذوت ووريق غصنك أخضر

أرصفة سوداء وتلال رمال

تركنا الـ (٧٠٪) من انجازات محافظة بغداد في البوابة المتروكة والمتوقف العمل فيها منذ شهور من غير أن نعرف هوية الشركة المسؤولة عن انجاز المشروع، ولا الفترة الزمنية لإكمالها شأنها شأن القوانين والتشريعات المعطلة وما أكثرها ،ولا حتى حجم الأموال التي أنفقت، وما هي أسباب التوقف، ذكرت عدة وسائل إعلامية أن هناك خطأ في التصاميم الأولية للبوابة وكذلك خطأ في المكان الذي أقيمت فيه، لذا هناك توجه بإزالتها كما يقول أحد موظفي الإعلام في مجلس محافظة بغداد رفض ذكر اسمه ونحن نسأل كيف يكون الفساد وهدر المال؟ وحين تجتاز سيطرة التفتيش مع كل دورة لإطارات العجلة التي نستقلها هناك دورات لا تحصى لصور وملامح واضحة لهيئة الخراب الذي يحتضن العاصمة بكل تفاصيلها، قطعان من الماشية تستعمر المدخل من دون رادع أو متابع، وناحية الوحدة التي تضم أحياء التأميم والخالصة والبسماية أصبحت مستودعا للسيارات السكراب ومحال غسل وتشحيم، ومعامل إزالة أصباغ السيارات بالرمل حيث تجد تلال الرمال شاخصة على أرصفة سوداء من دهون المحركات، وهناك مخازن آليات عسكرية قديمة فتجد الايفا العسكرية والوازالكاز (٦٦) ومقطورات مياه عسكرية ألوانها تذكرنا حتما بحروب الدكتاتور التي نتيجتها ما نراه الآن من خراب يديمه بعض ساستنا الجدد.

سوق الوزير

المتجه صوب بغداد من بوابتها المزعومة سيلاحظ حتما المحال التي شيدت على مستنقعات مياه ودهون ،وأخرى لتصليح أو تصليخ السيارات، ومعامل غير قانونية لصناعة البلوك وهناك سوق يسمى بسوق الوزير وما يزال بهذا الاسم على الرغم من أن بانيه هو المقبور حسين كامل. وأنت تتجاوز الشارع المؤدي إلى ناحية النهروانتجد هناك قطعة خط عليها حي المنتظر ،وما يثير دهشتك أن بجانبها يافطة كتب عليها (هنا رمي الأنقاض)! وثالثة تثير السخرية كتب عليها قطعة للايجار المهم أينما تلتفت تجد التنوع في الإهمال والخراب، وهنا نسأل الخيانةعفوا الأمانة أين الأموال التي رصدت للحزام الأخضر المحيط بالعاصمة ؟فلا أثر لوردة أو نخلة أو متنزه فما نراه الآن هو خردة حديد أكلها الصدأ، مخازن ومحال غير نظامية وعجلات وشفلات قديمة، وحتى الدوائر التابعة للدولة هناك، محاطة بالأنقاض والقاذورات مثل مشروع الرستمية للمياه الثقيلة، ومن الجهة المقابلة للشركة العامة لتجارة السيارات في جرف النداف، التي يجاورها الخراب من جميع الجوانب فضلا عن الأنقاض التي تقع قبالة مدخلها الرئيسي ،كلاب سائبة وأخرى تتوسد الطريق نافقة، وأحيانا في وسط الطريق بعد أن دهستها عجلة مسرعة، وهناك حمار مصدوم ليس بالواقع مثلي بل بشاحنة وأدى الحادث إلى انقلاب الشاحنة ،هذا ما يزين مدخل بغداد يا محافظتها ويا أمانتها.

وفي الصورة ما يغني عن الحديث

تلال السكراب

سيطرة تفتيش وأخرى للتسول

بغداد المنكوبة كانت يوماً ما تذهل وتسحر العالم بمداخلها وأبوابها لما تتسم به من التصميم العمراني الفني الساحر ولما تحتويه من وسائل السياحة والراحة لزائريها،وأسس لهذا النهج الحضاري مع تأسيس الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور لها

قصاب قرب المحكمة

محكمة بغداد الجديدة والماشية

أليس من حقنا أن نقول ونحن في لوعة ووحشة المكان ما قاله الشاعر ياسين طه حافظ للراحل الروائي محمود عبد الوهاب قبل أن يغادرنا في قصيدته (بدء رحلتنا أم وصول):

خيبة هذه أم كلال .. كأنك تطفو على زورق يا صديق
في الظلام العميق، نحن لا نسأل ماذا كسبنا
قدر ما نسأل كم قد أضعنا
ما تزال الرياح هنا تنزع اللافتات وتلقى بها للخرائب
أي دنيا مدمرة هذه؟
نعم يا سيدي وأي أناس يدمرون البلاد؟

تركنا خرائب قضاء المدائن ونواحيه التي تعيش في الدرك الأسفل من البؤس والحرمان، فالكهرباء معدومة في بعضها وسلطة النور هناك للسلطان فانوس شاه،نعم الفوانيس هي النور السائد هناك ونحن في القرن الواحد والعشرين!!؟؟؟؟؟؟؟.

تركنا تلك الأحياء مع وجعها لننعم بمشاهد الترف!!!الذي تعيشه مداخل بغداد كالأمين الذي لم يعد أمينا وبغداد الجديدة التي أصبحت القديمة، هاتان المنطقتان اللتان كانتا تعدان من الأماكن التي تنعم بالثراء العمراني تجدهما اليوم مركزين ومراحين لقطعان الماشية فهي منتشرة في كل مكان منها،وكذلك مناضد القصابة وبيع اللحوم في الهواء الطلق افترشت الشوارع والأزقة،وعلى بعد مئات الأمتار تشم رائحة أحشاء تلك الحيوانات المذبوحة وفضلاتها ،التي أصبحت عطرا مألوفا يستنشقه أهالي تلك المناطق،والغريب أن محكمة بغداد الجديدة تحيطها تلك القطعان والقصابة غير الشرعية،بل على جدارها الخارجي كشك لتنظيف الباجة.

يقول احد المواطنين من بغداد الجديدة وهو يشير إلى احد الدور السكنية انه مستأجر لراعي ماشية وهناك الكثير من البيوت بدلا من أن يسكنها البشر هي لتلك الحيوانات التي تملأ المنطقة أمراضا وروائح كريهة كما ذكر، فهل بعد ذلك هناك من يشكك بتقرير منظمة (ميرسر)؟ ، لا أظن ذلك، وقبل أن اتجه صوب خراب آخر في العاصمة الأسوء عالميا التفت باتجاه العراق وهو يسكن الضلوع المستحقات التقاعد مرددا ما قاله عنه الشاعر جاسم بديوي في ديوانه غيوم من قصب :

كم كنت أسبح باشتعالك فتضمني بفم احتفالك
كم كان يصحبني جنوبك داخلا نشوى شمالك
أنا ماعرفت الجري و الطرقات إلا من خلالك
الكل أحرقه الوضوح وأنت أوضح ماهنالك
صبحت بالأشجار والوجع الكسير على اكتمالك